في الحب

سيبسم لهذا العنوان قوم وسيعبس له آخرون وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا لنه يريد أن يقرأ عن هذا الحب شيئا ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعا للحديث من مجلة ينتظر منها الجد الصارم ولا يجب منها الإقبال على لغو الحديث فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطا خالصا لأن حديث الحب لهو كله وما أكثر الصحف والمجلات التي تلهج باللهو وتغرق فيه.

ومع ذلك فقد كانت حياتنا في العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسرا وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطا ولا عبوسا وإنما تثير رضا وابتهاجا وتدعو إلى الرؤية والتفكير في كثير من الأحيان وقد مضى في تاريخنا الأدبي والعقلي عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة وإنما كان جدا خالصا لا يخلو من صرامة وحزم في كثير من الأحيان فلم يكن حب الغزلين في شمال الحجاز وفي نجد لهوا ولا مجونا ولا مصدرا للدعابة والفكاهة وإنما كان جزءا من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين فدفع إليه الغزلون في شيء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربي القديم ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعا به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو وإنما تجد فيهما النفوس غذاء روحيا يرتفع بها عن صغائر الحياة ويعز بها عن هذه السفاسف اليومية التي تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع على أن هذا الهيام الذي شمل النفس العربية في نجد وشمال الحجاز لم يتردد في أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة في مكة والمدينة فقد كان شعر جميل وكثير والقيسين ينشد في المسجد الحرام وينشد في المسجد النبوي، ويستمتع به في هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رؤية العلم والدين لا يجدون في ذلك حرجا ولا جناحا ربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه فشقى بالحب أن كان الحب شقاء ونعم بالحب أن كان الحب نعيما وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة أن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة.

وقد كان عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي صاحب قراءة للقران ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة حتى لقبه أهله مكة بالقس فلم يمنعه ذلك حين رأى سلامة وسمع غناءها أن يحبها حبا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعرا غزلا كغيره من الشعراء الغزلين لم يجد في ذلك حرجا ولا جناحا لأن ذلك لم يورطه في إثم ولا فسوق وعبد الرحمن بن أبي عمار القس هو الذي يقول في سلامة هذين البيتين الرائعين:

سلام هل لي منكم ناصر   أم هل لقلبي عنكم زاجر

قد سمع الناس بوجدي بكم   فمنهم اللائم والعاذر

يزعم والرواة أن سلامة أحبت القس وحببت إليه وهمت ذات يوم أن تقبله أو أن تضع فمها على فمه كما يقول الرواة ولكنه امتنع عليها مؤثرا نقاء القلب وصفاء الضمير مشفقا أن ينعم يحبها في الدنيا فيشقى بحبها في الآخرة ويصبح من هؤلاء الأخلاء الأعداء الذين ذكرهم القران الكريم.

وقد أثر ابن عباس رحمه الله كما يعرف الناس جميعا أن يسمع لغزل ابن أبي ربيعة على أن يسمع لأسئلة نافع بن الأزرق في الفقه والحديث وتفسير القران فقد كان القدماء أسمح منا نفوسا وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة يعنفون بأنفسهم في مواضع العنف ويرفقون بها في مواطن الرفق ولا يتكلفون هذا السخيف والتزمت الذي لا يدل على شيء وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أتحدث عن الحب مرغبا فيه أو مرغيا عنه محسنا له أو زاريا عليه بل لا أريد أن أتحدث عن الحب في نفسه وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعا للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين: أحدهما عربي مسلم قديم والآخر أوربي مسيحي حديث فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسي وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسي فقد عاش أولهما فهو ابن حزم الأندلسي وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسي فقد عاش أولهما في القرن الحادي عشر وعاش ثانيهما في القرن التاسع عشر فبينهما نحو ثمانية قرون وهما بعد ذلك يختلفان أشد الاختلاف ولا يكادان يتفقان إلا في الشيء اليسير جدا.

فابن حزم مسلم متعمق للإسلام يؤمن به إيمانا صادقا متينا يرتفع به إلى العلوم الإسلامية والعربية فهو متقن لرواية الحديث محسن للفقه متخصص في الكلام متفوق في الجدل عالم بشؤون الفرق الإسلامية مهاجم لأكثرها مدافع عن أقلها منافح عن الإسلام نافذ لما ورث المسيحيون واليهود من المسيحية واليهودية عارض لكل مسألة من مسائل الدين بالدرس والنقد والتحليل مظهر رأيه فيها مؤيد له بما يرى أنه الحجة القاطعة والبرهان الساطع الذي لا يمكن الشك فيه فهو بذلك رجل من رجال الذين ومن رجال الدين لا يمكن الشك فيه فهو بذلك رجل من

رجال الدين ومن رجال الذين الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على درسه واستقصائه والذود عنه والقيام من دونه.

وهو صاحب مذهب بعينه في الدين ليست عليه كثرة المسلمين فهو ظاهري يؤثر النص ويكره التأويل ولا يحب التأول ولا يميل إلى التأويل وهو من أجل ذلك لا يخاصم في الكلام وحده وإنما يخاصم في الفقه أيضا وهو من اجل ذلك متقن للغة أشد الإتقان متعمق لكل ما يتصل بها من علم أشد التعمق فهو لغوي وهو نسابة وهو رواية للشعر والأدب والأخبار ثم هو قبل هذا كله من أسرة قد تولت الوزارة واتصلت بالقصور وعملت في الدواوين ودبرت أمور السياسة وقد شارك في بعض ما نهضت به الأسرة من الأعباء ولكنه صرف نفسه عن السياسة أو صرفته الظروف عن السياسة إلى العلم فأحاط بكل ما كانت تتكون منه الثقافة الإسلامية العربية في ذلك الوقت ثم لم يكتف بأن يكون عالما ممتازا بل أراد أن يكون معلما ممتازا كذلك هذا هو ابن حزم.

أما ستندال فقد نشأ في عصر الثورة الفرنسية وشارك في الخطوب السياسية والعسكرية التي امتلأ بها عصر نابليون وقاتل في غير موقعة من مواقع هذا القائد العظيم وشهد الأحداث الكبرى التي اضطربت لها فرنسا ثم اضطربت لها أوربا ثم اضطربت لها العالم كله في آخر القرن الثامن عشر وفي النصف الأول للقرن التاسع عشر وهو بحكم نشأته وبيئته والعصر لذي عاش فيه مسيحي اللون حر الضمير واسع الثقافة إلى أبعد حد ممكن ولكنه لم يكن وزيرا ولم يحاول أن يكون وزيرا ولم يكن معلما ولم يحاول أن يكون معلما وإنما عاش لنفسه أولا ومنح قلبا ذكيا وعقلا خصبا وضميرا حيا ونبوغا فنيا ممتازا فلم يجد بدا من أن يصور حياته وحياة الناس من حوله وحياة العصر الذي عاش فيه.

فالاختلاط بين هذين الرجلين يعيد إلى أقصى غايات البعد ولكنهما على ذلك يلتقيان في بعض الأمر فكلاهما أوربي المولد والنشأة ولد ابن حزم ونشأ وعاش في أسبانيا وولد ستندال وعاش في فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية.

وقد ذكرت أنفا أن ابن حزم عربي مسلم وما أردت بعروبته هذا المعنى الضيق الذي يتصل بالجنس والنسب فقد يقال أن ابن حزم لم يكن عربيا صليبة وإنما أردت هذه العروبة التي تتصل بالثقافة والسياسة والدين واللغة والنشأة وهذه الخصال التي هي أهم ألف مرة ومرة من الجنسية العنصرية فقد كان الرجلان إذن أوربيين ولكن احدهما عربي الحياة والآخر فرنسي الحياة وأحدهما من أبناء القرن الحادي عشر والآخر من أبناء القرن التاسع عشر وقد كان الرجلان يلتقيان في شيء أخر فكلاهما عاش في عصر فتنة واضطراب: عاش ابن حزم في عصر انهيار الدولة الأموية في الأندلس وانتثار النظام السياسي في هذا الجزء من أوربا وقل أن شئت في هذا الجزء من العالم الإسلامي القديم وقد شهد ابن حزم انتقام السلطان من بني أمية إلى

حجابهم قم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب وقيان ملوك الطوائف وتدخل البربر في شؤون العرب الأسبانيين ثم هو لم يشهد ذلك من برحه العاجي وإنما شهده شهود المشارك فيه المصطلي بناره المتحمل لآثاره فذاق السجن ونفى من الأرض وتقاذفته مدن الأندلس بل تقاذفته مدن العالم الإسلامي الغربي فهو قد عبر إلى إفريقية وهو قد عبر إلى الباليار وهو قد لقي في هذا كله ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب.

وعاش ستندال في عصر الثورة وفي عصر الحروب التي أثارها نابليون أو أثيرت عليه وشارك في هذه الحروب فانتصر حين انتصر نابليون وانهزم حين انهزم نابليون واضطرته هذه الحروب إلى التقلب في أقطار أوربا فذهب إلى ألمانيا والنمسا والروسيا وأقام في إيطاليا فأطال الإقامة وعاد أخر الأمر إلى فرنسا.

وليس المهم بالقياس إلى هذين الرجلين أنهما عاشا في عصر فتنة واضطراب وتأثرا بهما في حياتهما المادية وإنما المهم أن كليهما قد منح حسا دقيقا وشعورا رقيقا وعاطفة ثائرة ومزاجا حادا وذوقا رفيعا فتأثر بهذه الفتنة وتأثر بهذا الاضطراب وعاش عيشة سخط وشذوذ وقلق لا عيشة رضا واطمئنان وحرص على ملائمة الجيل الذي يعيش فيه.

كان ابن حزم شاذا في أسبانيا المسلمة المضطربة وكان ستندال شاذا في فرنسا المسيحية الثائرة وكان كلاهما ساخطا على ما يرى منكرا لما يشهد عاكفا على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجري حوله من الخطوب.

في هذا كله كان الرجلان يختلفان وينفقان ومن هنا فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبي الخالص ومن النافع أن نقف عند هذين الكاتبين وقفة قصيرة فقد يكون من المفيد أن يرى كيف عني الأديب المسلم القديم والأديب المسيحي الحديث بهذا الأمر الخطير الذي هو الحب.

وإذا قلت أن الحب أمر خطير فإنما أصدر في ذلك عن ابن حزم من جهة وعن ستندال من جهة أخرى ولست في حاجة إلى أن أصدر في ذلك عن شعر الشعراء ولا عن أدب الأدباء ولا عن الحياة نفسها لأني لا أكتب فصلا في الحب كمن حيث هو وإنما أكتب فصلا في الحب كما صوره هذان الأديبان.

والظاهر أن الحب قد كان خطيرا حقا في أسبانيا المسلمة أيام ابن حزم وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفى من أرض وطنه قد فرغ لكتابة رسالة فيه وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن صديقا من أصدقائه الفقهاء المحدثين المتأدبين قد طلب هذا إليه أن يكتب هذه الرسالة فلولا أن الأمر له شيء من خطر لما طلب هذا الفقيه المحدث

الأديب إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه ولما أجاب ابن حزم إلى ما طلب إليه وهو على جناح سفر قد أزعج عن وطنه واستقر في شاطبة لينتقل منها إلى منقى أخر.

ثم نحن نقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب قد شغل ابن حزم في حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب لم يشغله وحده ولم يشغله مع صاحبه الذي طلب إليه تأليف الكتاب وحدهما وإنما الظاهر أنه كان يشغل الناس جميعا في اسبانيا المسلمة لعهد ابن حزم ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس.

أما في فرنسا فالحب شيء خطير في كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل ولكنك سترى أن ستندال لم يكن يقدر الحب كما ألفه مواطنوه الفرنسيون.

أكاد أعتقد أن في نفوسنا من اسبانيا المسلمة صورة غير مطابقة للحقيقة الواقعة أثناء القرن الخامس للهجرة على اقل تقدير فنحن نقرأ فقها وفلسفة وحديثا وكلاما وتفسيرا ولغة ونحن نقرأ أخبار الفتن والحرب فيخيل إلينا أن أسبانيا المسلمة قد كانت في القرن الخامس موطن الجد المظلم والثورات المنكرة والاختلاف المؤذي للنفوس لا نكاد نستثني من ذلك إلا هذه البيئات الخاصة التي كانت تمتاز بالعكوف على اللذات والانصراف إلى الشعر والموسيقى والغناء ولكن ابن حزم يعطينا في كتابه طوق الحمامة صورة أخرى لأسبانيا المسلمة في ذلك العهد صورة وطن كان الناس فيه جميعا يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه يتعرضون له كما يتعرضون لغيره من محن الحياة بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت لا فرق في ذلك بين أصحاب الجد منهم وأصحاب الهزل ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين والذين يفرغون للأدب والفن والذين يفرغون للسياسة والحرب.

وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجري على هذا النحو في جميع أقطار الأرض ولكن حظوظ الناس من الحرية في تصوير هذا والتعبير عنه تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف والظاهر أن أسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا في الحب وحده بل في التحدث عن الحب أيضا ومن الحق أن ابن حزم تخرج شيئا أو كاد يتحرج شيئا من الكتابة في هذا الموضوع ولكنه لم يلبث أن يعفى نفسه من هذا الحرج بآثاره رواها في أول الكتاب وبحض على الطاعة ونهى عن المعصية وترغيب في الفقه سجلها في أخر الكتاب فقد روي ابن حزم بسنده المتصل إلى أبي الدرداء رحمه الله أنه كان يقول: أجسوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق.

وروى آثارا أخرى عن جماعة من السلف الصالح رحمهم الله.

وكان هذا أشبه باستئذان للدخول في هذا الموضوع الخطير الذي يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه منذ نشأ إلى أن مات وأخص ما ينفق فيه ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا في الحب كتاب المزيد المتكلف وإنما أرادوا أن يكتبا فيه كتابة العالم الذي يؤثر البحث والاستقصاء ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة ويستنبط من هذا كله أصولا وقواعد هي أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه فليس الذي يعنيهما أن يرويا الأخبار ولا أن يستنبئا الخيال ولا أن يفلسفا في غير موضع للفلسفة وإنما الذي يعنيهما أن ينظروا إلى الواقع ويعمدا إليه ويأخذا منه في غير تكلف ولا تصنع أيضا كلاهما يريد العلم ويعتمد على الظواهر الواقعة ولكن أحدهما يعيش في القرن الحادي عشر والآخر يعيش في القرن التاسع عشر وبين حياة العقل الإنساني في هذين العصرين أمد بعيد فابن حزم يعيش في عهد الكلام وما بعد الطبيعة وستندال يعيش في عهد العلم والتجربة فليس غريبا أن يكون ابن حزم فيلسوفا حين يفسر الظواهر الواقعة وأن يكون ستندال عمليا حين يفسر هذه الظواهر نفسها.

ومن هنا عمد ابن حزم إلى تعريف الحب كما كان الناس في عصره يعمدون إلى تعريف كل شيء وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفي الذي ألفه أصحاب المنطق فهو يثبت قبل كل شيء أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها وأنه من أجل ذلك شيء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدود الدين والعرف وهو يذكر الحب الذي ألم بطائفة من خلفاء بني أمية في الأندلس ومن خلفاء الفاطميين في مصر والحب الذي ألم ببعض الفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين وما أفتى به ابن عباس رحمه الله في بعض الأمور التي تتصل بالحب ثم يذكر بعد ذلك مالية الحب كما يقول: وهي كلمة يأخذها من ما وهي توازي كلمة الماهية عند الشرقيين من أصحاب المنطق والفلسفة كأن الشرقيين يأخذون كلمتهم من ما هو وكأن ابن حزم وأصحابه الأندلسيين يأخذون كلمتهم من ما وحدها فيجعلون الألف همزة حين ينسبون ومالية الحب كما يقول ابن حزم أو ماهيته كما يقوم الشرقيون هي عند ابن حزم الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليفة في أصل عنصرها الرفيع كأن ابن حزم يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصرا رفيعا نأتلف منه نفس واحدة قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس فقد يحدث اتصال بين بعض هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب وقد يحدث انفصال فيكون البغض وبمقدار ما يكون الاتصال قويا أو ضعيفا يقوي الحب أو يضعف وبمقدار ما يكون الانفصال قويا أو ضعيفا يشتد البغض أو يلين.

وهذا الاتصال إنما هو ملائمة في الشكل وتشابه في الطبع وحنين جزء من النفس إلى

جزء أخر من النفس والأعراض الطارئة هي التي تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها أن تقترب وتأتلف وابن حزم لا يحب أن يذهب مذهب إمامه محمد بن داود الظاهري ومذهب غيره من الفلاسفة الذين يرون أن النفوس أجزاء من نفس واحدة قد قسمت على المخلوقات إلى حين ثم هي تعود إلى أصلها وإن كان ابن حزم لم يصرح بهذه العودة في هذا الكتاب والشيء المهم هو أن الحب عند ابن حزم لا يأتي من الأجسام وإنما يأتي من النفوس وليست الأجسام في حقيقة الأمر إلا وسائط ووسائل تتيح للنفوس أنت تتقارب أو أن تتباعد وآية ذلك أن من الناس من يحب شخصا تنقصه هذه الخصلة أو تلك خصال الجمال الجسمي وهو يعلم أن بين الناس من يستوفون خصال الجمال الجسمي كلها أو أكثرها ومن يزيدون على محبوبة في هذه الخصال فلو كان الجمال الجسمي مصدر الحب لما أمكن أن يحب الإنسان شخصا قبيحا أو منقوص الحسن ونحن نعلم أن العاشقين لم لا يبلغ الحسن فيهم أقصاد ولن يقدر عليهم القبح ليسوا قليلين ولا تفسير لذلك عند ابن حزم إلا أن الحب ظاهرة تتصل بالنفوس ولا تتصل بالأجسام إلا اتصالا عارضا فنحن هنا أمام بحث فلسفي يتصل بما بعد الطبيعة أكثر مما يتصل بالطبيعة نفسها أو قل إنه يتخذ الطبيعة سلما يرقي فيه إلى ما بعد الطبيعة وليس شيء من هذا كله غريبا فابن حزم يعيش في القرن الحادي عشر والعلم عنده ما ورث عن الفلاسفة والمتكلمين.

فأما ستندال فهو لا يعمد إلى التعريف ولا يفكر في الاستنباط المنطقي وإنما يعمد إلى الاستقراء والاستقصاء فهو لا يعرف الحب جملة وإنما يستقصي أنواع الحب عند أفراد الناس وعند أصنافهم وهو يضع أصلا في أول كتابه لا يكاد يحققه حتى يشك في دفنه ويفتح باب الاستقراء والاستقصاء من جديد.

فليس هناك حب واحد إذن وإنما هناك أنواع أربعة من الحب: أولها الحب الجامح الذي يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها والذي يندفع كالسيل لا يلوي على شيء ولا يترك لصاحبه حظا من أناة أو روية أو تفكير والثاني الحب المترف الذي ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف في الذوق وتأنق في فنون المتاع والذي لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب ولا يكاد يؤثر في العاطفة أو في الشعور وإنما هو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف قد وضعت له قواعده وأصوله وأحاط الناس بأسراره ودقائقه فهم يصعدون فيه عن علم وينتهون إلى غايته عن بصيرة والثالث الحب الجسدي الذي تدفع إليه الغرائز والذي يشترك فيه الإنسان والحيوان والرابع حب الغرور الذي ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التي يكبر بها الإنسان أمام نفسه وإن لم يكبر بها في أنفس الناس وقد مثل ستندال لأنواع الحب هذه بأمثلة تصورها تصويرا صادقا وتدل عليها دلالة واضحة فأبطال الحب المعروفون الذين تحدث عنهم التاريخ يصورون النوع الأول والمترفون من الفرنسيين أثناء القرن

الثامن عشر يصورون النوع الثاني والصائد الذي يشتهي قروية رآها تهتم في الغاية فأعجبه شكلها يصور النوع الثالث وكثرة الشعب الفرنسي في عصر ستندال تصور النوع الرابع على أن ستندال لا يلبث أن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس دقيقا ولا نهائيا وأن من الممكن أن يحل كل نوع من هذه الأنواع الأربعة إلى أنواع أخرى جزئية يدل عليها بألفاظ أخرى فأمور الحب أشد دقة وأكثر اختلافا وأيسر تفاوتا من أن تتقصي على نحو قاطع محتوم وليس المهم عند ستندال أن تحصي أنواع الحب أو تستقصي وإنما المهم أن نتبين كيف سينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت وستندال يرى أن هذا كله إنما يجري طبقا لقوانين يعرضها في هذا الكتاب والإعجاب هو أول درجة من درجات الحب ترقاها النفس حين تتجاوز نظرتها العادية البريئة من الاكتراث إلى التفات خاص لا يكاد يتم حتى ينشأ عنه إعجاب يقف النفس عند هذا الشخص الذي التفتت إليه ولا يكاد هذا الإعجاب يتصل حتى ترقي النفس في هذا السلم إلى درجة أخرى وهي درجة التوق والشوق أو الطموح أن شئت وهي الدرجة التي يقول فيها الإنسان لنفسه أحببت إلى بأن أقبل هذا الشخص أو بأن يقبلني فهو طموح إلى الاتصال المادي بعد أن تم الاتصال النفسي.

ثم يرقى الإنسان إلى الدرجة الثالثة فأنت تستطيع أن تتوق وأن تشتاق وأن تطمح ولكن هذا كله شيء وانتظار الوصول إلى ما تطمح إليه شيء أخر فإذا تجاوزت الطموح إلى الأمل فقد ارتقيت إلى الدرجة الثالثة في تصديك للحب ثم لا يكاد يستقر الأمل في نفسك أو لا تكاد نفسك تستقر في الأمل حتى تبلغ الدرجة الرابعة وهي الدرجة التي يتم فيها تكون الحب فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استحال هذا كله في نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو أن تسمعه أو أن تمسه أو تتصل بسبب من أسبابه وأنت إذا وجدت هذه اللذة معرض لأن تجد الألم إذا انقطعت الأسباب بينك وبين من تحب وكذلك لا تبلغ الدرجة الرابعة حتى تضطربي بين ما يحدث الحب من لذة وألم ومن نعيم وجحيم وإذا وجد الحب فلابد له من أن ينمو إلا أن يقتل يوم مولده ونموه يبدأ حين تبلغ الدرجة الخامسة وهي ما يسميه ستندال التبلور الأول ومنشؤها اتصال تفكيرك فيمن تحب فأنت لا تفكر فيه غيرك من الناس الذين لا يحفلون به ولا يأبهون له وإنما تسبغ عليه شيئا من إعجابك به وشوقك إليه وأملك فيه وإذا أنت تضيف إليه محاسن تزعم أنها لا توجد في غيره وإذا أنت تقوى شعورك بالغبطة حين تتصل به بمقدار ما تضيف إليه من المحاسن فهو وحده الذي يستطيع أن يرضي ما تطمح إليك نفسك من المثل العليا في اللذة والسعادة والنعيم وغيره لا يقدر على أن يبلغك من هذا كله شيئا لأن هذا كله موصول بما خلعت على محبوبك من المحاسن والخصال التي ميزته بها من الناس جميعا وكذلك تتصل نفسك به اتصالا قويه متينا غير مقطوع وإذا أنت حريص أشد الحرص على استيفاء هذا الاتصال والتزيد

منه في كل لحظة ما وجدت إلى ذلك سبيلا وإذا بلغت هذا الحرص فليس لك يد من أن ترقى إلى الدرجة السادسة فالحرص مصدر الخوف والشك ومتى انتهيت من الحرص إلى غايته فلابد لك من أن تشك في أنك موفق أو غير موفق وأنت في هذه الدرجة السادسة تسأل نفسك بين لحظة ولحظة أيجد حبك صدى في نفس محبوبك أم لا يجد؟ ثم أنت لا تكتفي بهذا السؤال ولا تطمئن إلى هذا الشك ومتى اطمأن الإنسان إلى الشك؟ إنما أنت مضطر إلى أن تلتمس الدليل القاطع على أنك تخطئ فيما قدرت ولم تخفق فيما طلبت وعلى أن محبوبك يقارضك حبا بحب ويبادلك هياما بهيام وأنت كذلك تسأل نفسك ثم تجيب نفسك ثم تشك في الجواب فتستأنف السؤال فإذا طال عليك هذا الأمر وظفرت بالإشارة وظفرت الدالة أو اللمحة المطمعة أو الآية المقنعة فأنت راق على رغمك إلى الدرجة السابعة وهي التبلور الثاني كما يسميها ستندال فأنت قانع بأنك محبوب وأنت تزين لنفسك هذا الحب الذي تجده والذي تطمئن إلى أن له صدى في نفس من تحب تخلع على هذا الحب من صفات القوة والسعة والعمق والجمال ما شئت وما لم تشأ ثم يصبح هذا الحب حياتك التي تملك عليك كل شيء وتصرفك عن كل شيء وتأخذ عليك طريقك وقد انتهيت الآن إلى قمة الحب فلم يبق إلا أن يتصل نعيمك به أو شقاؤك بما يمكن أن يعرض له من الضعف والفتور.

كذلك يعرض ستندال مقدمات الحب ونشأته ونموه وبلوغه إلى أقصى غاياته ثم هو يعود إلى هذه الدرجات بعد ذلك فيدرسها درسا مفصلا عميقا بعد الطبيعة له الأمثال ويستدل كل القرب من الطبيعة نفسها لا يلتمس للحب حدا ولا رسما ولا تعريفا وإنما يميز أظهر أنواعه ثم يتبعه منذ تتهيأ النفس له إلى أن تفني النفس فيه وواضح جدا أن ستندال حين يسلك هذه الطريق إنما يذهب مذهب العلماء المعاصرين له الذين تأثروا بنشأة العلوم التجريبية وتطورها فاعتمدوا على الملاحظة المباشرة أكثر مما اعتمدوا على أي شيء آخر.

وقد هم ابن حزم أن يسلك هذه الطريق نفسها بل هو لم يسلك إلا هذه الطريق طريق الملاحظة المباشرة فهو لا يخترع أحاديثه عن الحب اختراعا ولا يبتكرها ابتكارا ولا يخلقها من عند نفسه وهو لا يكاد يلم بالفلسفة إلا حين يحاول تعريف الحب وهو لا يقرر أصلا من الأصول ولا فرعا من الفروع إلا مستمدا له مما رأى بنفسه ومما وجد في نفسه أو مما سمع من الذين لا يعرض الشك له فيما يلقون إليه من الأحاديث فابن حزم معتمد على الملاحظة المباشرة كما يعتمد عليها ستندال ولكن ابن حزم لا ينتفع من ملاحظته المباشرة كما ينتفع بها ستندال فبين الرجلين دهر طويل تطور فيه العقل الإنساني وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطورا عظيما بعيد المدى فملاحظة ابن حزم دقيقة كملاحظات ستندال ولكنها قريبة لا تتعمق ولا تكاد تتجاوز نفسها إلا قليلا لأن ابن حزم لم يظفر من أدوات البحث

والاستقصاء والتعمق بمثل ما ظفر به الكتاب الفرنسي الحديث.

وبين الرجلين فرق آخر وهو أن ابن حزم على شذوذ الذي لفت إليه المعاصرون جميعا في الشرق والغرب بل لفت إليه الذين جاءوا بعده بوقت طويل لم يستطع أن يخلص من العادة المألوفة في التفكير والاستنباط فهو قد فكر كما كان الناس يفكرون من حوله بل كما فكر الناس من قبله ومن بعده واستنبط كما كانوا يستنبطون لم يستطع أن يتجاوز ذلك لأن وقت تجاوزه لم يكن قد أن ولأن وسائل هذا التجاوز لم تكن قد استكشفت بعد.

وقد يكون من الغريب أن ابن حزم قد صرح أكثر مما صرح ستندال فستندال يزعم صادقا أو غير صادق ومن المحقق أنه غير صادق أنه لم يتخذ نفسه موضوعا للملاحظة في أي فصل من فصول كتابه فهو لم يتحدث عن نفسه ولا عن عواطفه وشعوره مجال من الأحوال أما ابن حزم فيحدثنا عن نفسه في صراحة رائعة حقا ولعل أحاديثه عن نفسه هي خير ما اشتمل عليه الكتاب وليس عليه من ذلك بأس لأنه يحدثنا صادقا من غير شك أنه لمك يقترف في الحب إنما ولم يورطه الحب في خطيئة كبيرة من الكبائر.

وهو من أجل ذلك يحدثنا عن نفسه في صراحة وسماح ويقص علينا من أنبائه ما يثير في نفوسنا كثيرا جدا من الرفق به والرثاء له والعطف عليه فنحن نشهده في دار أبيه الوزير وقد تعلقت نفسه بجارية من جواري الدار رائعة الحسن بارعة الجمال قوية النفس صادقة العزم حازمة الجد لا تحب العبث ولا تميل إلى الدعابة وإنما تغرق في الجد إغراقا يكاد يدفعها إلى العبوس وقد اجتمع أهل الدار في يوم من الأيام التي يجتمعون فيها لبعض الأمر وقد ألم بهم ضيف فطعموا ونعموا وأشرفوا من بعض أصناف الدار على البستان ينظرون إليه ثم إلى النهر ثم يمدون أبصارهم إلى أبعد من البستان وأبعد من النهر فيرون من قرطبة وضواحيها منظرا عجيبا وقد وقفت هذه الجارية عند باب من أبواب الطنف تشرف منه على هذا المنظر الرائع الجميل وابن حزم يحتال متنقلا ليدنو منها ويقف من مكانها غير بعيد ولكنها لا تحس احتماله ولا تلاحظ قربه حتى تنأى وتنتقل إلى باب أخر وابن حزم يتبعها رفيقا دائما محتالا دائما متهالكا دائما وهي تبعد كلما قرب وتنأى كلما دنا ثم يقترح مقترح أن تهبط الجماعة إلى البستان وتجلس على عشبه الأخضر بين ما يزينه من شجر وزهر فيهبط القوم ويحاول ابن حزم أن يدنو فتنأى صاحبته ثم يقترح مقترح على الجارية أن تغني وكانت بارعة في العزف متفوقة في الغناء فتضرب وتغني

ويكون هذا كل ما استطاع ابن حزم أن يظفر به من هذه الجارية ثم تمضي الأيام وتحدث الأحداث وتلم الخطوب ويبعد العهد ويعود ابن حزم بعد أعوام إلى وطنه في قرطبه فيرى هذه الجارية وقد ابتذلتها حوادث الدهر واضطرتها الخطوب إلى أن تتكلف ما لا يتكلف أمثالها من المترفات وإذا الزهر قد ذوي وإذا الحسن قد غاض وإذا الضر قد بدا أو كاد يبدو ونحن نرى ابن حزم يصور نفسه لنا وقد شغفت فتاة قلبه كما لم تشغفه فتاة قط وقد اتصل الحب بينه وبينها ثم اختطفها منه الموت فانظر إلى الجزع الذي ليس بعده جوع والوجد الذي ليس بعده وجد والعذاب الذي لا يشبه عذاب وإذا هو يقضي أياما لا يضع ثيابه ولا ينعم بطعام أو شراب وإذا هو يذكر حبيبته مستيقظا ويحلم بها دائما ويقول في حبه لها الشعر أثناء اليقظة وأثناء النوم وإذا الأيام تمضي حتى تصبح أعواما وأعو أما والسن تتقدم بالفتى قليلا قليلا حتى يصبح كهلا ثم يصير إلى الشيخوخة وحبه لتلك الفتاة ما زال شابا في قلبه لم يؤثر فيه مر الزمن ولم يستطع البسلوان أن يرقي إليه.

فابن حزم إذن يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة يلاحظ نفسه وخلطاءه ويلاحظ الناس من حوله ولكنه على هذا كله مقيد مقصوص الجناح لا يكاد يتعمق ولا يكاد يرتفع لأنه يفكر كما كان يفكر الناس في عصره فأسبابه إلى التعمق والاستقصاء قصار لا يتجاوز به القواعد السطحية أو التي توشك أن تكون سطحية.

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيبا منطقيا مقاربا ولكنه كره أن ينفذ كتابه على النحو المنطقي الذي رتبه قبل أن يبدأ في إنشاءه وأثر أن يخالف بين الخطة المرسومة وتنفيذ هذه الخطة فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها أن توضع لا حيث اقتضى الترتيب المنطقي أن تكون وهذا أيضا دليل على أن ابن حزم قد حاول أن يتخفف من أثقال عصره ويتحرر من قيود التفكير التي كانت تمنع معاصريه من الحركة الحرة كما نفهمها نحن الآن ولكنه لم يبلغ مما أراد إلا أقله وأيسره.

ودليل أخر على أن ابن حزم أراد أن يتحرر من هذه القيود فذهب إلى أبعد مما ذهب

إليه ستندال ولكنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد وهو أن ابن حزم كره أن يرجع بحديث الحب إلى ما امتلأت ب كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين فلم يحفل بكل ما كان من حديث الأعراب ومن غزل الغزليين في نجد والحجاز ومن تكلف الشعراء بعد ذلك لما تكلفوا من فنون الحب وأبى إلا أن يقصر ملاحظته على نفسه وعلى ما رأى وما سمع من معاصريه على حين لم يكتف ستندال بما رأى وما سمع وإنما اعتمد على ما قرأ أيضا وعلى ما قرأ من أخبار القدماء في جنوب فرنسا نفسها وفي أسبانيا المسيحية والمسلمة بل على ما قرأ من كتب العرب أنفسهم فهو قد عرف كتاب الأغتمي ونقل عنه أطرافا من أخبار الغزلين ومن أخبار جميل وبثينة بنوع خاص والغريب أننا نعجب بابن حزم لأنه أعرض عما كان يعرف من أمر القدماء وأبى أن يعتمد على غير الملاحظة المباشرة ونعجب في الوقت نفسه ستندال لأنه طلب ما لم يكن يعرف من حب القدماء فاستقصى حب الغزلين جنوب فرنسا وتأثرهم في هذا الحب بحضارة المسلمين في الأندلس ثم مضى يستقصي أصل هذا الحب الأسباني حتى انتهى به والأغاني إلى صدر الإسلام ثم إلى العصر الجاهلي وقد أخطأ فيما فهم من ذلك وأصاب ولكنه حاول ما لم يتعود أمثاله أن يحاولوه فنحن نعجب به من هذه الناحية كما نعجب بابن حزم لأنه ترك ما لم يتعود أمثاله أن يتركوه.

كلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء ولكن أحدهما وفق لما لم يوفق له الأخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه.

على أن هناك نواحي امتاز بها ستندال ولم تخطر لابن حزم على بال فكلا الرجلين قد حاول درس النفس الإنسانية من بعض نواحيها وكلا الرجلين قد أعطانا صورة دقيقة أو مقاربة لهذه الحياة ولكن ابن حزم وقف عند هذا الحد فأما ستندال فتجاوز النقد إلى الاقتراح فستدال ينقد الحياة الفرنسية نقدا مرا لا يكتفي بذلك بل يعرض لتربية الفتاة فيستخلص عيوبها ويرد إلى العيوب كثيرا من أفات الحب عند الفرنسيين بل عند الأوربيين ثم هو لا يكتفي بذلك بل يقترح مذهبا جديدا في تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبا صحيحا صالحا نقيا وتلهم الفتى حبا صحيحا

صالحا نقيا ثم هو يتجاوز ذلك إلى الزواج فينقد نظامه ويقترح ألوانا من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج تقريبا بعيدا وكل هذه أمور لم تخطر لابن حزم لأنه كما قلت كان مثقلا بقيود عصره مقصوص الجناح لم يستطع أن يتعمق ولا أن يرتفع.

وفي كتاب ستندال لون آخر من ألوان البحث لم يخطر لابن حزم ولم يكن يمكن أن يخطر له فستندال يبحث عن الصلة بين الحب وبين طبائع الشعوب من جهة وبين الحب والنظام والحكم من جهة أخرى وهذا اللون من بحث ستندال ممتع حقا ولا سيما حين يعرض لبعض خصائص الشعوب والحكومات فالحب مقيد بارد شديد الكسل والفتور في بلاد الإنجليز لأن طبيعة الإقليم وطبيعة الشعب وطبيعة الحكومة الأرستقراطية كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الإنجليزي خجلا متخذيا لا يظهر إلا على استحياء والحب في إيطاليا جامح مندفع لا يثبت أمامه شيء وهو لا يستخفي ولا يتردد ولا يستخذي ولا يخجل وإنما يظهر صريحا حرا كما تظهر الشمس لأن طبيعة الإقليم الإيطالي والشعب الإيطالي وتفرق السلطان في إيطاليا لعهد ستندال كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الإيطالي جريئا عنيفا مقداما والحب في فرنسا مغرور منافق لا يكاد يثبت ولا يستقر لأن طبيعة الشعب الفرنسي والإقليم الفرنسي ونظم الحكم في فرنسا بعد انهيار الإمبراطورية كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الفرنسي مرائيا ثرثارا لا يقول شيئا ولا يصور شيئا فأين نحن من ابن حزم الذي لم يتجاوز بالحب وطنه الأندلسي وقد خطر له مرة أو مرتين أن يعبر بالحب مضيق جبل طارق ففعل ولكنه تحدث إلينا عن أندلسي باع جارية له كان يحبها لبعض البربر ثم تبعتها نفسه ولم يستطع السلو عنها ولم يرد البربري أن يعفيه من البيع فرفع أمره إلى السلطان في قصة طريفة مؤثرة،

وقد مضى ابن حزم بالحب إلى الشرق فأبعد حتى انتهى إلى بغداد ولكنه يحدثنا عن عالم أندلسي انتهى إلى حارة لا تنفذ ورأى في هذه الحارة جارية دلته على أن الحارة غير نافذة وكانت الجارية سافرة فراغه حسنها وشغفه حبها وخاف على نفسه ودينه الفتنة فسافر إلى البصرة ومات فيها شهيدا لهذا الحب.

فكأن ابن حزم لن يرد أن يعرض في كتابه لغير الحب الأندلسي درسه في موطنه ثم تبعه أحيانا إلى مهاجرة في إفريقية أو في بغداد.

على أن هناك مسألة هي فيما أعتقد أجل خطرا من كل ما عرضت له في هذا الحديث إلى الآن لماذا ألف ابن حزم كتابه طرق الحمامة؟ ولماذا ألف ستندال كتابه في الحب؟

أما أيسر الجواب عن هذه المسألة فهو أن صديقا لابن حزم طلب إليه أن يضع له هذه الرسالة ففعل وأن ستندال أنفق حياته كلها متتبعا للحب على اختلاف صوره وأشكاله ومواطنه فألف فيه كتابا ولكن هذا لا يقنعني ويخيل إلى أن هناك جوابا أخر قد يكون أجل من هذا خطرا وأبعد منه أثرا فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال لم يقصد بهما إلى الحب في نفسه وإنما قصد بهما إلى الفن إلى فن تصوير الحب والتعبير عنه فقد ألف ابن حزم كتابه في البلاغة إذن وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه في الشعر والنثر وآية ذلك هذه النماذج الشعرية التي يبثها في كل فصل من فصول الكتاب وهي نماذج ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره وأكبر الظن أنه صنع كثيرا من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب.

وأما ستندال فقد ألف كتابا في النقد وفن الجمال أراد به إلى أن يشرح أولا مذهبه فيما عرض من أمر الحب في قصصه المختلفة وأراد به بعد ذلك أن يعلم القصاص كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يعرضونه فيما ينشئونه من القصص الطوال والقصار وأية ذلك هذه النماذج القصصية التي أضافها إلى كتابه بعد أن عرض نظرياته في الحب.

فنحن إذن أمام كتابين من كتب العلم لم يقصد بهما وصاحباهما إلى العبث ولا إلى اللهو ولا إلى مجرد التجربة وإنما قصدا بهما التعليم قبل كل شيء.

وقد أعجب القدماء بكتاب ابن حزم ولكنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه أثر أدبي على أنه غاية في نفسه لا صلة إلى فن الشعر ولم يعجب المعاصرون لستندال بكتابه في الحب حين نشره في أوائل القرن الماضي فقد بيع من طبعته الأولى في عشر سنين بضع عشرة نسخة فلما

مضى على نشره عشرون علما أنبأنا ستندال نفسه بأنه لا يظن أن الذين ذاقوه وفهموه قد بلغوا المائة أما الآن فقد تقدمت دراسات الحب من نواحيه المختلفة تقدما هائلا حتى أصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما في التاريخ تقدما هائلا حتى أصبح كتاب ابن حوم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما في التاريخ الأدبي ليس غير ولكنه خطر غير قليل.